السنة الحادية والأربعون من مولده ﷺ

وفيها: اختصه الله برسالته وبعثه إلى كافة خليقته، ولم يزل منذ شبَّ يكلؤه الله ويحرسه من أَقْذاءِ الجاهلية ومعايبها لما يريده الله من كرامته.

واتفقوا على أنه بعث في أيام كسرى أبرويز في يوم الاثنين.

واختلفوا أي الأثانين على أقوال:

أحدها: لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، ظهر له جبريل بالرسالة، قاله جمهور الصحابة: عمر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأنس، وأبي بن كعب، في آخرين.

والثاني: لثماني عشرة ليلة خلت من ربيع.

والثالث: لسبع وعشرين خلت من رجب.

والرابع: لأربع وعشرين خلت من رمضان. وقال مجاهد: سبع وعشرين خلت منه.

والقول الأول أشهر، وعليه العمل عند أهل العلم.

فصل في مبادئ الوحي:

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري قال: أخبرني عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أولُ ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصادقة ـ أو الصالحة ـ في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل[1] فَلَقِ الصُّبحِ، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاء، فكان يأتي غار حراء فيتحنَّثُ فيه ـ والتحنُّثُ هو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها ويتزود لمثلها حتى جاء ـ أو فَجَأَهُ ـ الحق في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال: «ما أَنَا بقارِئٍ» قال: «فأخذني فَغَطَّني الثَّانية والثَّالثة حتى بَلَغ منِّي الجَهْدُ، ثم أَرسَلَني

(١) من هنا بدأ سقط في (ك) ينتهي بعد صفحتين.

وقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾حتى بلغ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ١-٥]، قالت: فرجع رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ـ وللبخاري: بوادره[١] ـ فدخل على خديجة فقال: «زَمِّلوني زَمِّلوني» فزمَّلُوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، فأخبر خديجةَ بالخبر، وقال لها: «لَقَد خَشيتُ على نَفْسِي» فقالت له: كلا، أبْشِر، فوالله لا يخزيك ـ أو لا يحزنك ـ الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَصْدُقُ الحديث، وَتَكْسِبُ المعدوم، وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق.

ثم انطلَقَت به خديجة إلى وَرَقة بن نَوْفَل بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصي، وهو ابن عمها أخي أبيها. وكان امرءًا تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فكتب من الإنجيل بالعربي أو بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ. فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بالخبر، أو خبر بما رأى. فقال ورقة: هذا النَّاموس الذي أُنزل على موسى، يا ليتني أكون حيًّا إذ يخرجُك قومك. فقال: «أوَ مُخْرجيَّ هم»؟ قال: نعم، ولم يأت رجل قط بمثل ما أتيت به إلا عُودي، وإن يدركْني يومك حياً، أنصرْك نصراً مُؤزَّراً.

ثم لم يلبث ورقة أن مات، وفتر الوحي فَتْرَةً حزن فيها رسول الله ﷺ مراراً حتى كاد يتردَّى من شواهق الجبال، فكان كلما أَوْفى بِذِرْوَةِ جبل لكي يُلقِيَ نَفْسه منه تبدَّى له جبريل فقال: يا محمدُ إنك لرسول الله حقًّا. فيسكن لذلك، وتقوى نفسه ويرجع، فإن طالت عليه الفترة عاد لمثل ذلك، فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك. أخرجاه في «الصحيحين»[٢].

ولورقة في ذلك أشعار كثيرة منها: [من الطويل]

فإن ابن عبد الله أحمدَ مُرسَلٌ ... إلى كل من ضُمَّت عليه الأباطحُ
وظني به أن سوف يُبْعث مرسلاً ... كما أُرسلَ العَبْدان هودٌ وصالحُ
وموسى وإبراهيم حتى يُرى له ... هنالك منشور من الذكر فائحُ
فإن أَبْقَ حتى يدرك الناسُ دهرَه ... فإني به مُسْتَبْشِرُ القلبِ فارحُ

(١) البخاري (٤٩٥٣).

(٢) أحمد في «مسنده» (٢٥٩٥٩)، والبخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)(٢٥٣).

وقال[١]: [من الطويل]

إن يك حقاً يا خديجة فاعلمي ... حديثُك إيانا فأحمدُ مرسلُ
وجبريلُ يأتيه وميكالُ مَعْهُما ... من اللهِ وَحْيٌ يشرح الصَّدْرَ مُنزَلُ
يفوز به من فاز يوماً بصِدْقِه ... ويَشْقى به العاني الغَوِيُّ المُضَلَّلُ
فريقان منهم فِرقةٌ في جِنانه ... وأُخرى بنيران الجحيم تُذلَّلُ
فسبحان من تجري الرياحُ بأمره ... ومن هو في الأيامِ ما شاء يفعلُ
ومَنْ عرشه فوق السماوات كلها ... وأحكامه في خلقه لا تبَدَّلُ

فصل في السابقين إلى الإسلام[٢]:

اتفقوا على أن أول من أسلم من النساء: خديجة رضي الله عنها. واختلفوا فيما عداها على أقوال:

أحدها: أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[قال أحمد:] حدثنا يعقوب، عن أبيه، عن ابن إسحاق، حدثنا يحيى بن أبي الأشعث، عن إسماعيل بن إياس بن عَفِيف الكندي، عن أبيه، عن جده، قال: كنت امرءاً تاجراً، فقدمت الموسم فأتيت العباس بن عبدالمطلب وهو بمِنى لأبتاع منه بعض التجارة، وكان تاجراً. فوالله إني لعنده بمنى إذ خرج رجل من خِباء قريب منه فَنَظر إلى الشمس، ثم قام يصلي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخِباء فقامت تصلِّي خلفه، ثم خرج من ذلك الخباء غلام حين راهَق الحُلُمَ فقام يصلي خلفه، قال: فقلت للعباس: من هذا؟ فقال: محمد[٣] بن عبدالله بن عبدالمطلب ابن أخي. قلت: من هذه المرأة؟ قال: امرأته خديجة. قلت: فمن هذا الفتى؟ قال: علي بن أبي طالب ابن أخي. قلت: فما هذا الذي يصنع؟ قلت: يصلِّي ويزعم أنه نبيٌّ، ولم يتابعه على أمره إلا امرأته وابن عمه، وهو يزعم أنه ستُفتح عليه كنوز كسرى وقيصر، وايم الله، ما أعلم على وجه الأرض كلها أحد على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة.

---

(١) الشعر هذا وسابقه في سيرة ابن إسحاق برواية يونس بن بكير ١١٥ ـ١٢٣.

(٢) انظر «المنتظم» ٢/ ٣٥٨.

(٣) هنا ينتهي السقط في (ك).

فكان عَفِيف ـ وهو ابن عم الأشعث بن قيس ـ يقول: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ لكنت ثالثاً أو رابعاً. ثم أسلم وحسن إسلامه(١).

وقال جابر: بُعِثَ النبي ﷺ يوم الاثنين، وصلى [علي] يوم الثلاثاء(٢).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عبدالرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن حَبَّة العُرَني قال: رأيت علياً كرم الله وجهه ضحك على المنبر حتى بدت نواجذه، ولم أره ضحك أكثر منه. فقيل له في ذلك، فقال: ظهر علينا أبي أبو طالب وأنا مع النبي ﷺ ببطن نَخْلَة نصلِّي، فقال: ماذا تَصنعان يا ابن أخي؟ فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام. فقال: لا والله لا تعلوني استي أبداً. فذلك الذي أضحكني. ثم قال علي رضي الله عنه: اللهمَّ إني لا أَعرف عبداً من هذه الأمة عَبَدَكَ قبلي غيرَ نبيِّك ﷺ، لقد صلَّيت قبل أن يصلِّي الناس بسبعِ سنينَ(٣).

والثاني: علي، وخديجة، وزيد بن حارثة رضي الله عنهم.

والثالث: أبو بكر رضي الله عنه وبلال.

وفي حديث عمرو بن عَبَسة الذي أخرجه مسلم: أنه لما لقي النبي ﷺ بمكة، قال: فمن معك على هذا؟ قال: حُرٌّ وعَبدٌ، ومعه يومئذ أبو بكر وبلال(٤).

وقد وفَّق بعض العلماء بين هذه الأقوال، فقال: أول من أسلم من الرجال: أبو بكر، ومن الفتيان: علي، ومن الموالي: زيد، ومن النساء: خديجة رضي الله عنهم.

ثم أسلم على يد أبي بكر رضي الله عنه بعد إسلامه جماعة، منهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عُبيد الله رضي الله عنهم(٥).

وفيها تغيَّرت أحوالُ كسرى أبرويز بن هرمز بن أنو شروان.

قال علماء السير: كانت دجلة تجري قديماً في أرض جُوخا، فأَعْوَرت وتفرَّقت،

---

(١) مسند أحمد (١٧٨٧)، وما بين معقوفتين زيادة من «المنتظم» ٢/ ٣٥٩.

(٢) أخرجه الطبري ٢/ ٣١٠ وما بين معكوفين منه، وأخرجه الترمذي (٣٧٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٧٦).

(٤) أخرجه مسلم (٨٣٢).

(٥) انظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٢٣٢.

فأنفق عليها أبرويز أموالاً عظيمة، وأسكرها مراراً، والماء يقلع السَّكْر، وكان عنده ثلاث مئةٍ من الحزاةِ ـ وهم: السحرة، والكهنة، والمنجمون ـ فجمعهم كسرى، وكان فيهم رجل من العرب يقال له: السَّائب، يعتافُ اعتيافَ العَربِ فلا يخطئ، وكان بعث به بَاذَان إليه من اليمن، وكان لأبرويز طاق في الإيوان يضع فيه تاجه، فلما كانت الليلة التي بعث فيها رسول الله ﷺ، انفصم الطاق، وانقطع السكْرُ، فانخرقت دجلة فأصبح كسرى حزيناً، ودعا القوم فقال لهم: انفصم طاق تاج ملكي، وانخرق الماء عن بلادي «شاه بِشْكَسْت» أي: انكسر الملك، فانظروا.

فنظروا، فأظلمت الدنيا عليهم وتحيَّروا، فلم ينتفع كاهن بكهانته، ولا ساحر بسحره، ولا منجم بنجومه، فقام السَّائب عنهم، وبات على رابية يَرْمُقُ نجوم الحجاز، فرأى في موضع قدميه روضة خضراء، فقال: لئن صَدَق ما أرى ليخرجن من الحجاز سلطان يبلغ ملكه المشرق والمغرب، تخصب الأرض في زمانه، واجتمعت الحُزاةُ وقالوا: والله ما حال بينكم وبين علومكم إلا أمر سماوي، وإنه لنبيٌّ بُعِثَ يَسلب كسرى ملكَه، ولئن أخبرتم كسرى بذلك، ليأتين على آخركم، فاتَّفِقُوا على أمر تدفعوا به عنكم. فقالوا له: قد نظرنا، فإذا وَضْعُ الطاق والسكر كان في طالع النحوس، ونحن نبصر لك طالعاً سعيداً تعيد فيه الطاق والسكر.

وعيَّنوا له وقتاً، فشرع في السَّكْر على دجلة، وغرم عليه أموالاً عظيمة، فلما فرغوا منه فرش عليه الفُرُشَ، وأحضر الأساورة والمرازبة والأشراف والأعيان، وجميع من في مملكته، ثم جلس على السَّكر وأخذ في اللعب والشرب، فبينما هم على ذلك انقطع السَّكر نصفين، وغَرِق جميع من كان عليه، واستخرجوا كسرى في آخر نفس، فقتل من الحُزاةِ مئة رجل، فقال الباقون: أخطأنا كما أخطأ مَنْ قبلنا، ونحن نحسب حساباً صحيحاً، فقال: افعلوا، وحسبوا وأمروه بوضع السَّكر فوضعه، وجلس عليه فانقطع نصفين وأصابه أعظم من الأول، فقال لهم: والله لئن لم تصدقوني لأرمينكم تحت أرجل الفيلة، كم تُلَفِّقونَ عليَّ؟ فقالوا: نحن نصدقك، إنا نظرنا في علومنا فرأينا أنه قد ظهر نبيٌّ، وأظهر له السَّائب ما رأى، فلها عنهم وعن دجلة، وذلك قبل أن يأتيه

كتاب النبيِّ ﷺ[١].

قال الحسن البصري: إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، ما حجة الله على كسرى فيك؟ فقال النبي ﷺ: بعث الله إليه ملكاً، فأخرج يده من سور جدار بيته تتلألأ نوراً، فلما رآها فزع، فقال له: يا أبرويز، لا تُرَع فإن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً، فاتبعه تسلم لك دنياك وآخرتك، فقال: سأنظر في ذلك[٢].

وقال الواقدي: بعث الله إليه ملكاً وقت الهاجرة وهو في بيت لا يدخل عليه أحد، فلم يَرُعْه إلا وهو قائم على رأسه، وفي يده عصا، فقال له: يا أبرويز، أسلم وإلا كسرت هذه العصا على رأسك، فقال: بِهِل بِهِل ـ أي اصبر ـ، ثم انصرف عنه، فدعا حجابه وحراسه، وقال: من أين دخل هذا؟ قالوا: ما رأيناه. ثم جاءه بعد سنة، فقال له كذلك. ثم انصرف وجاءه في السنة الثالثة، فكسر العصا على رأسه. فكان ذلك سبباً لقتله، فقتله ابنه شيرويه[٣].

وفي رواية: نام كسرى يوماً فرأى في منامه كأنه رُمي به إلى السماوات، وأوقف بين يدي الله تعالى، وإذا رجل عليه إزار ورداء، والله تعالى يقول له: «يا أبرويز، سلم مفاتيح خزائن الأرض إلى هذا». فسلمها إليه، ثم أراد أن يستردها فأيقظه بعض حجابه لأمر دَهَمه.

قال حاتم بن عطاء: والذي حكى المنام: خالد بن وَيْدَة، وكان مجوسياً فأسلم، والرجل الذي كان عليه الإزار والرداء: محمد ﷺ[٤].

* * *

(١) انظر «المنتظم» ٢/ ٣٦٠-٣٦٢، وتاريخ الطبري ٢/ ١٨٨، و«السيرة الشامية» ١/ ٤٢٨.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٢/ ١٩٠، وانظر «المنتظم» ٢/ ٣٦٢.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ٢/ ١٩١.

(٤) انظر «المنتظم» ٢/ ٣٦٣-٣٦٤، والوفا (٢٣٨).